

صالح أحمد العلي

وجهوده العلمية في دراسة خطط بغداد

م. د. مها سعيد حميد*

مقدمة:

عرف المؤرخ العراقي الموصلّي صالح أحمد العلي بجهوده العلمية من حيث تأليف الكتب أو ترجمتها أو نشره للأبحاث العلمية، ومن تلك الجهود نشاطه في تأليف وترجمة الكتب التي تناولت خطط بغداد، إذ نجد هذا المؤرخ يهتم بتلك الخطط، في الوقت الذي يغيب عن نشاطه تاريخ الموصل وخططها وعمارته علماً بأنه موصلّي الولادة والنشأة، ولعل احد الأسباب في ذلك اهتمام العاملين بتراث بغداد كونها عاصمة العراق قديماً وحديثاً وان الشعور الوطني له مكانته في ذلك، وليس كما قال أحد الباحثين بان قلة المادة التاريخية عن مدينة الموصل في العصور العباسية الاولى جعلت العلي يعزف عن البحث في ماضي وتاريخ مدينته، ويبدو ان صالح احمد العلي كان موصلّي المولد والنشأة، لكنه كان بغدادّي الهوى والاقامة، وقد ظلت بغداد في وجدانه كما هي.

اما أهمية الموضوع فتكمن في أمرين، الأول: ان العلي هو امتداد لما بدأت به الدراسات عن خطط بغداد منذ بداية القرن العشرين سواء في مؤلفات ماسنيون أم كي لسترانج ام غيره من المستشرقين الذين اهتموا بأطراف بغداد ومركزها، والأمر الثاني: يظهر ان المجمع العلمي العراقي كان له إسهامات في إيقاظ الروح الوطنية والعمل على نشر إبداعات الحضارة العباسية في بغداد، وتحويل التاريخ المحلي العراقي إلى اهتمام الباحثين العرب والأوربيين، وبالتالي فإن نتاج المجمع العلمي العراقي منذ نشأته حتى منتصف الثمانينات يتمتع بنتاج له مكانته العلمية، وتعد المجلة التي يصدرها من المجلات التي لا يمكن تجاهلها لا سيما عند البحث في التاريخ والتراث البغدادي .

* مدرس / مركز دراسات الموصل

إضاءات موصلية - العدد (٧٠) / جمادى الاولى ١٤٣٤ هـ / نيسان ٢٠١٣ م

- صالح احمد العلي حياته وأسرته:

أ. أسرته ونشأته:

ينتمي المؤرخ صالح بن احمد بن علي بيك بن محمد بيك بن عثمان العلي إلى بطن العبدلي احد فروع قبيلة العنزة العربية^(١)، ويرجع في نسبه إلى جده الأعلى الذي استوطن الموصل حسين العنزي، اما لقبه ال العلي بيك فيرجع إلى لقب جد والده احمد الذي تلقب بالبكوية، وأصبحوا يعرفون باسم البك منذ ذلك الوقت، كما مارس أفراد هذه الأسرة مهنة الصيرفة فعرفوا ببيت الصراف، إذ كان احمد والد صالح العلي قد ورث الصيرفة عن أبيه، وكان لديه دكان في سوق الصرافين (الذي يقع في منطقة باب الطوب -صقور الحضر- قرب خان حمو القدو الواقع في مركز مدينة الموصل حالياً)، فضلاً عن ممارسته النشاط التجاري الخارجي سواء غرباً باتجاه حلب ام جنوباً باتجاه بغداد والخالص^(٢)، وبخاصة ان تجارة الموصل كانت مزدهرة في مطلع القرن العشرين وحتى منتصفه، إذ اشتهرت عدة عوائل موصلية بنشاطها التجاري مثل أسرة الصابونجي والجادر وحمو القدو وغيرها من الأسر الموصلية^(٣)، وكانت أسرة العلي تعيش في إحدى بيوت محلة جامع خزام القريب من محل عمل الوالد والقريب من باب السراي، في هذا البيت ولد المؤرخ صالح أحمد العلي سنة ١٩١٨، وكان قد حظي برعاية واهتمام كبير من قبل أفراد أسرته لا سيما من أمه وأخواته الأكبر منه سناً^(٤)، لأنه الولد الذكر الوحيد بينهم، كما كان والده يحبه كثيراً وعندما بلغ الأربع سنوات من عمره اخذ والده يصطحبه معه إلى السوق، على الرغم من صغر سنه لكي يعود على الممارسات التجارية، إذ ذكر العلي ذلك قائلاً: "وفي هذا السوق عرفت السلع والبضائع وأصول المعاملات، واطلعت على الناس، وأشرفت على البيع، وشاركت في بيع سلع متواضعة عززت معرفتي بالسوق وصلتي باهلي"^(٥)، وهذا السلوك للوالد لم يكن يختلف عن غيره من أباء تجار ذلك الزمان في الموصل، لا سيما وان الطبقة المتوسطة من تلك العوائل كانت تسعى للمحافظة على مكاسبها من خلال المحافظة على أعمالها.

ومما هو جدير بالذكر ان دكان الوالد كانت على مقربة من خان الوقف الذي احتل أهمية كبيرة في أسواق الموصل آنذاك، إذ كان يرتاده كثير من أصحاب القوافل التجارية وسكان المدن البعيدة^(٦)، وهذا بحد ذاته سمح له وهو في ذلك السن على التعرف على عناصر من خارج مدينته ومحيطه مما اكسبه ثقافة سوقية قد ساعدته على فهم بعض الأشياء، ولم تكن تحركات صالح العلي وهو صغير قاصرة على دكان والده، وانما كان ينتقل إلى دكان خاله احمد البزاز فيقول: "وكننت انتقل من دكان أبي في سوق الحبالين، قرب خان الوقف إلى دكان خالي في قيسارية السبع أبواب، إلى بيتنا قرب جامع خزام، ماراً بسوق السراي المفعم بالتنوعات"^(٧)، وكانت تلك المشاهد المتنوعة

والمليئة بالحياة لها تأثيرها المبكر في حياة العلي، إذ أخذ منها تصوراتهِ الأولى عن الأحوال الجغرافية والسكانية لهذه المناطق ومسمياتها^(٨)، إلا أن هذا العيش الرغيد الذي ولد فيه العلي لم يدم طويلاً، ذلك أن الأزمة العالمية في نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات تركت آثارها على أسرة العلي، كذلك حال الكثير من تجار الموصل الذين أشهر قسم كبير منهم إفلاسه بعد أن تقلص حجم المبادلات التجارية وانخفض الطلب على السلع سواء في الأسواق المحلية أم الخارجية، وبذلك أصيبت تجارة الموصل بانتكاسة حادة على مختلف الأصعدة من بينها تجارة الأصواف والجلود^(٩)، وكان الصرافون ومنهم والد صالح العلي متأثرين بقانون العملة العراقية لعام ١٩٣٠، مما أدى إلى اختلاف وتذبذب أسعار الصرف الذي انعكس على الوضع الاقتصادي لتجار الموصل^(١٠)، فاضطر والد صالح العلي الصراف إلى بيع الكثير من أثاث بيته لتسديد المستحقات المالية المترتبة عليه، وتأجير بيته الفخم بخمسة دنانير التي كانت المصدر الأساس لمعيشة أسرته، والانتقال إلى بيت صغير ملحق به، وهذا اثر في شخصية وتفكير صالح العلي، وأخذ يفكر في السلك الوظيفي والتخلي كلياً عن التجارة^(١١)، بقوله: "أصبح مستقبل الحياة المعاشية مرتبطاً بالوظيفة التي تعتمد على التعلم في المدارس"^(١٢)، ولعل المتابع لسيرة العلي خلال هذه السنوات يعتقد أن الرغبة في كسب التعليم طمعاً في الحصول على الوظيفة، وهذا ما كان فعلاً، لكن بعد أن تدرج العلي في مراحل التعليم المتقدم أدرك أن رغبته لا تتوقف عند حدٍ بسيطٍ من الأعمال الوظيفية البسيطة إنما تتجاوز ذلك وهذا ما حصل.

ب- تعليمه الأولي:

تلقى صالح احمد العلي أول خطوات التعلم في البادية على غرار بعض الأسر الموصلية، إذ أمضى السنوات الأربع الأولى من حياته في كنف عرب الشرايين، ثم عاد إلى الموصل وهو في سن الرابعة ودخل الكتّاب في جامع خزام، وختم القرآن الكريم وتزامن ذلك مع دخوله المدرسة الخضرية (الإعدادية الشرقية حالياً)^(١٣)، ثم انتقل في الصف الرابع إلى مدرسة الوطن الابتدائية الأقرب إلى بيته، والتي أثرت فيه كثيراً خاصة مكتبتها التي كانت على حد قوله مفتاح اهتمامه بالكتب التي أشعلت جذوة القراءة لديه، لأنها اشتملت على كتب الأدب والتاريخ، ومن مكتبة المدرسة انتقل إلى مكتبة الامير غازي (مكتبة الموصل العامة المركزية)^(١٤)، التي لم يمض على تأسيسها سوى سنوات قليلة، وكانت مصدراً للتعرف على المدن والأصقاع على امتداد الكرة الأرضية ثم إلى عوالم مختلفة، وأدرك في نفسه الرغبة لمعرفة مسميات بعض الأماكن والمدن التي يرد ذكرها في دكان والده أو في دروس الجغرافية والتاريخ في المدرسة، فكان لوصف البلدان حفاوة كبيرة لديه منذ أوائل رحلته مع القراءة والمكتبات، ثم انتقل إلى المدرسة الخضرية مرة أخرى ليكمل المرحلة المتوسطة، ثم التحق بدار المعلمين الابتدائية في بغداد لأنها ستؤمن لاسرته

بعد تخرجه دخلاً شهرياً ينقذها من وضعها الحالي^(١٥)، ودخل دار المعلمين الابتدائية سنة ١٩٣٥، وتخرج بعد سنتين اي سنة ١٩٣٧^(١٦)، لكن الرغبة في التطور والتقدم جعلاه يتحمس بشدة لخبر افتتاح دار المعلمين العالية في العام التالي، وتلقى التشجيع من والدته ومن خاله البزاز الذي كان دائماً سنداً له فذهب إلى بغداد مرة أخرى والتحق بهذه الدار سنة ١٩٣٩ في فرع الاجتماعيات الذي تألف من قسمين التاريخ والجغرافية، وفي هذا الوقت اخذ العلي يشق طريقه إلى التخصص في التاريخ بعد ان كانت الدراسة في دار المعلمين الابتدائية أكثر عمومية واقل تخصصاً، إذ كانت تربوية في أهدافها، اما دار المعلمين العالية فكان الطابع الأكاديمي هو الغالب ومحوره الدراسة المعمقة لحقل التاريخ حيث درس التاريخ القديم والإسلامي والحديث، فضلاً عن الجغرافية والاقتصاد وعلم النفس والتربية، وأمضى أربع سنوات في هذه الدار وتخرج منها بتفوق سنة ١٩٤٣، وحصل على شهادة الليسانس في العلوم الاجتماعية^(١٧)، وكان لهذه الدار تأثير على العلي لا سيما عنايته بالمكان والخطط والجغرافية بفروعها المختلفة، وذلك لان موقع الدار نفسها في الكرخ وهو ما أثار رغبته في البحث عن أصول هذا المكان وتوارد أخباره في المصادر القديمة لتصبح عملية البحث هذه نواة لكتابه (بغداد مدينة السلام : الجانب الغربي) الذي نشره عام ١٩٨٦.

كذلك دفعته عنايته تلك إلى تتبع جغرافية العراق ومواقعه وخصائصه المحلية، وأهله من خلال توثيق الصلة برفاقه الطلبة، والبحث في المناطق التي جاؤوا منها وما حملته من تسميات^(١٨)، في حين ان اهتمامه بالبغداديات وإهماله للموصليات يدل على فهمه وحبه للأولى وصعوبة الحصول على مصادر الثمانية وهو محق في ذلك، كما ان اهتمامه الحقيقي كان باتجاه القرون الثلاثة الاولى للهجرة بوصفها أوج إبداعات العقلية العربية والأدلة المتوفرة تتركز على الكوفة والبصرة ومن ثم بغداد، اما الموصل فان إشعاعاتها الحقيقية في التاريخ الاسلامي تعود إلى عصور تالية، وان ما موجود في كتاب تاريخ الموصل للزدي (ت ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) لا يكفي لمشاريع بحثية معمقة مقارنة بالتفاصيل الثرية الموجودة في المصادر التاريخية عن حواضر العراق الأخرى^(١٩)، ولم يكن العلي محقاً في ذلك، لاسيما وقد ظهرت دراسات فيما بعد عن الموصل قد تناولت الكثير من جوانب المدينة في القرون الثلاثة الاولى، لكننا لا ننسى ان احد طلاب العلي وهو الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل قد تعرض للموصل في القرن السادس الهجري من خلال رسالته للماجستير (عماد الدين زكي) مما يدل على قناعة العلي في قلة الكشف عن تاريخ الموصل في القرون الثلاثة الاولى وبعد تخرجه من الدار التحق سنة ١٩٤٣ بكلية الآداب بمصر في جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حالياً) وحصل على الليسانس في التاريخ بدرجة الشرف الاولى، ومنح جائزة جلال الصادق التي تمنح للمتخرج الأول سنة ١٩٤٥^(٢٠).

ج- تعليمه العالي في أوروبا:

على الرغم من النجاح الباهر الذي حققه العلي، الا انه كان يرغب نحو آفاق أرحب، فاخترت قدراته بمصر جعله يقتنع بأنه قادر على انجاز ما هو اكبر وأعظم^(٢١)، ودراسته في مصر أتاحت له التعرف على شخصية بارزة ومؤثرة في سيرته العلمية وهو المستشرق هاملتون كب^(٢٢)، الذي له صلة بمؤرخيها، وقبل انتهاء السنة الدراسية الأخيرة في القاهرة جاءت موافقة المستشرق كب مشروطة بان يحصل الطالب على تقدير امتياز، وهذا ما حصل فعلاً فوجد العلي أمامه مشروعاً جديداً في بيئة دراسية جديدة، فبدأ في بغداد، وثنى في القاهرة، وها هو الان يقصد اكسفورد وذلك سنة ١٩٤٩، وتم اختيار خطط البصرة وتكوينها المبكر ليكون موضوعاً لأطروحته، ان اختياره لهذا الموضوع البعيد كل البعد عن مدينة الموصل من حيث النمط الجغرافي والاقتصادي والسكاني يدل على أمرين اما ان للمستشرق كب هيمنته على العلي وحثه على اختيار هذا الموضوع، او ان العلي وجد ان من السهولة دراسة خطط البصرة مع توفر المصادر لذلك، لا سيما وانه قد مارس التدريس في تلك المدينة، في حين لا ننسى رغبة هذا المستشرق في الكشف عن هذه المدينة ذات المكانة الجغرافية والمعدنية بالنسبة للاتكيز في ذلك الوقت^(٢٣).

د- وظائفه:

مارس صالح احمد العلي مهنة التعليم لمدة سنتين بعد تخرجه من دار المعلمين الابتدائية سنة ١٩٣٧، في قرية تل علي في كركوك، ثم انتقل إلى الموصل ودرسَ بمدرسة الطاهرة^(٢٤) في سوق الشعاريين، ثم انتقل إلى المدرسة العدنانية^(٢٥) ليدرس مادة اللغة العربية فيها، وبعد ان تخرج من دار المعلمين العالية سنة ١٩٤٣ التحق بمجال التدريس لمدة سنتين في البصرة التي ستكون بعد بضع سنوات محور أطروحته للدكتوراه، ثم انتقل إلى بغداد ودرّس في المدرسة المتوسطة الغربية، وبعد ان نال شهادة الدكتوراه سنة ١٩٤٩ عين مدرساً في كلية الآداب والعلوم في بغداد، ثم ترقى إلى منصب استاذ مساعد سنة ١٩٥١، وإلى رتبة أستاذ سنة ١٩٥٥، وهو لم يبلغ سن الأربعين وهذا تميز بحد ذاته، وحصل على زمالة دراسية لمدة سنة في جامعة ها رفرد في الولايات المتحدة الاميركية **Harvard university** سنة ١٩٥٦-١٩٥٧، ثم عاد إلى بغداد وأصبح عميداً لمعهد الدراسات الاسلامية العليا بجامعة بغداد بين ١٩٦٣-١٩٦٨، ثم أصبح خلال ممارسته التدريس في كلية الآداب جامعة بغداد رئيساً لقسم التاريخ وكالة من سنة ١٩٦٨-١٩٧٨^(٢٦)، ثم أصبح عضواً ورئيساً للمجمع العلمي العراقي لمدة عشرين سنة من ١٩٧٨-١٩٩٥، كما ترأس خلال هذه السنين مركز أحياء التراث العلمي العربي وكالة لمدة سنتين من ١٩٨٠-١٩٨٢، كما رتب عضواً في عدد من المجاميع العلمية العربية، وعضواً في الجمعية الاركيولوجية في الهند

Archaeological Assembly in India، وعضواً في المعهد الاسباني العربي في مدريد Arab institute in Madrid, Spain، وشارك في عدد كبير من اللجان المشكلة في العراق لبحث شؤون تدريس التاريخ في العراق^(٢٧)، ان مثل هذا التدرج الوظيفي والتطور الأكاديمي يدل تماماً على ان بغداد بوصفها عاصمة تقدم مختلف الفرص وليست كمدينته الموصل التي لم يعرف فيها في بداية حياته سوى معلم في احدى مدارسها، وان الاعتزاز بالمحلية المفرط له ضريبة غياب الفرص، في حين لا نتجاهل الطموح الشخصي الذي كان يتمتع به العلي وجديته في البحث والدراسة كان وراء حصوله على المناصب العلمية الرفيعة.

جهوده في دراسة خطط بغداد:

لقد اهتم المؤرخ صالح احمد العلي بشكل خاص بتخطيط المدن الاسلامية القديمة، لما لها من اثر حضاري كبير وانها نتاج تفاعل البيئة مع الانسان، ومن هذه المدن بغداد التي شيدها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٤-٧٧٥م)، بعد دراسة واسعة واختيار موقعها ومناخها لتحقيق الأمن وسهولة الاتصال بمختلف أطراف دولته الواسعة، فاسكن هذه المدينة أفراد حاشيته ورجال دولته ثم تغيرت الأحوال مما أدى الى تطور سريع ونمو هائل تجاوز حدود تصوره وصارت بعد تأسيسها مدينة عظيمة قال عنها اليعقوبي: 'فاختط مدينته المعروفة بمدينة أبي جعفر في الجانب الغربي من دجلة، وجعل لها أربعة أبواب... وعلى كل باب من هذه الأبواب مجالس وقباب مذهبة، وجد في البناء...'^(٢٨)، وبذلك اتسعت حدودها ولم تقتصر على الجانب الغربي الذي اختاره الخليفة أبو جعفر المنصور، وانما امتدت إلى الجانب الشرقي أيضاً، الذي أصبح أوسع من الجانب الغربي لكثرة الأسواق والتجارات وتطورت بغداد تطوراً كبيراً في شوارعها وطرقها، ثم جاء الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤١م) فانتقل إلى سر من رأى (سامراء) وظلت بغداد مركز إشعاع فكري وثقافي، فدراسة المواضع ومنازل السكان وخطط سكناهم، يساعد على توضيح ما مرت به بغداد من تطور او تراجع، ومدى أثر الهيئات التي بيدها مقاليد الأمور على هذا التطور وتوزيعه، فضلاً عن اظهار مراكز الإشعاع العمراني والحضاري^(٢٩).

أجهوده في تأليف الكتب والأبحاث الخاصة بخطط بغداد:

وظف العلي معرفته بالخطط - التي اكتسبها بعد انجاز أطروحته عن خطط البصرة - في دراسة خطط بغداد وأراد ان يتقن المصادر الأولية التي تناولت خطط المدينة فكتب سنة ١٩٦٧ بحثاً عن (مصادر دراسة خطط بغداد في العصور العباسية)^(٣٠)، وفي سنة ١٩٧٧ قام بتأليف كتاب (تعداد السكان في العراق في العهود العباسية الاولى {طبع ضمن كتاب معالم العراق العمرانية})، كما قام سنة ١٩٨٥ بتأليف كتاب (بغداد مدينة السلام) في جزئين، كما أنجز سنة ١٩٨٨ كتاب

جمع بين التنظيمات الإدارية والعمرانية لمدينة بغداد تحت عنوان (معالم بغداد الإدارية والعمرانية) وهذا دفعه إلى تأليف كتاب عام عن العراق وذلك سنة ١٩٨٩، جمع فيه العمران والجغرافيا المسمى (معالم العراق العمرانية والجغرافية)^(٣١)، ويلاحظ ان معظم هذه الكتب والأبحاث قد أنجزت والعلي يتصدر رئاسة المجمع العلمي العراقي، مما يدل ان العلي يدفع بمجلة المجمع وسياستها إلى ان تكون باتجاه دعم المركز وهو بغداد بأسلوب ودافع علمي ووطني في نفس الوقت، والعلي يؤكد على توظيف عنصرين مهمين في تاريخ البشرية وهما الأرض والإنسان، وكان حريصاً على تتبع أسماء الأماكن من طسايح ورساتيقي وقرى وأديرة وسواها، ولم يعتمد على كتب الجغرافيا والبلدانيات والتواريخ فقط، وإنما ينتقل للإشارة إلى كتب الفقه، اذ رأى أنها تقدم معلومات ثمينة عن فتوح هذه المنطقة، وملكيات العرب فيها وأحكام الأراضي فيها^(٣٢)، فكتب الفقه "تمثل أوج ما وصله العقل البشري من أبداع وسمو" حسب قول أستاذه ك^(٣٣)، ولم تقتصر جهود العلي في تأليف الكتب الخاصة بخطط بغداد، وإنما تعدى ذلك إلى كتابة البحوث الخاصة بخطط بغداد فمثلاً قام سنة ١٩٧٥ بكتابة بحث (الأسرة العباسية في بغداد)^(٣٤)، كما كتب سنة ١٩٧٦ بحثه الموسوم (منازل الخلفاء وقصورهم في بغداد في العهود العباسية الاولى)^(٣٥)، وفي سنة ١٩٧٧، قام بكتابة بحث (ادارة بغداد ومراكزها في العهود العباسية الاولى)^(٣٦)، كما كتب في نفس السنة بحثاً عن (سد الكرخ)^(٣٧)، وفي سنة ١٩٧٩ وضع العلي بحثاً عن (المواصلات والجسور في بغداد)^(٣٨)، وفي نفس السنة أيضاً كتب بحثاً بعنوان (الدواوين والوزارة مراكزها في بغداد)^(٣٩)، كما قام أيضاً سنة ١٩٨١ بكتابة بحث عن (نهر عيسى في العهود العباسية)^(٤٠)، وفي سنة ١٩٩٠ كتب بحثاً عن (رصافة بغداد وأطرافها)^(٤١)، وجميع هذه البحوث منشورة في مجلات علمية محكمة، فضلاً عن كتابة بحث عن (مراكز اقامة الخلفاء العباسيين في بغداد) وهو غير منشور^(٤٢).

ويلاحظ من العناوين السابقة للأبحاث التي أنجزها المؤرخ صالح العلي انها متنوعة ما بين الادارة والعمارة والجغرافية، لكنها موحدة بكون موضوعاتها تتحدث عن بغداد ، وهذا يدل على ان أبحاثه كانت ضمن خطة مستقبلية وليس اختيار العناوين وانجاز البحوث ضمن أفكار ارتجالية وليدة وقتها، بل انه من الواضح ان الفكرة عند العلي تظهر خلال تحويل فكرة سابقة في بحث يخص بغداد.

ب - جهوده في تحقيق الكتب المتعلقة بخطط بغداد:

قام العلي بتحقيق كتب تخص مدينة بغداد وخطتها مثل قيامه سنة ١٩٧٧ بتحقيق كتاب (بغداد مدينة السلام) لابن الفقيه الهمداني (ت ٣٦٥هـ/٩٧٥م)، وأيضاً حقق كتاب (البلدان) للجاحظ (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م) وذلك سنة ١٩٧٨^(٤٣).

ج - جهوده في الإشراف على الرسائل والاطاريح الجامعية:

عند الاطلاع على الرسائل والاطاريح التي اشرف عليها المؤرخ العلي والتي بلغت ما يقارب الخمسين رسالة ماجستير وأطروحة دكتوراه، في مختلف العناوين في التاريخ الاسلامي، لم نجد أحداً من طلابه كتبوا في موضوعات يخص خطط بغداد، ومن نماذج طلابه مثلاً الذين هم من مدينة الموصل، أمثال الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل الذي كانت رسالته في الماجستير بعنوان (عماد الدين زنكي حياته وأعماله السياسية) وذلك سنة ١٩٦٠، وكتب الدكتور اكرم ضياء العمري رسالته للماجستير بعنوان (خليفة بن خياط مواردّه وتحقيق كتابه الطبقات) وذلك سنة ١٩٦٦، وايضاً الدكتور صلاح الدين أمين طه كتب رسالة الماجستير الموسومة بـ(فتح العرب لأرمينية)، اما اطاريح الدكتوراه فقد اشرف العلي سنة ١٩٨١ على أطروحة الدكتوراه (الحياة العامة في أرمينية دراسة في أوضاعها الادارية والاجتماعية) للدكتور صلاح الدين أمين طه، وفي سنة ١٩٩١ اشرف على أطروحة (جهود العراقيين الحضارية في بلاد الشام ومصر) للدكتور يوسف جرجيس جبو الطوني^(٤٤).

وتركز النشاط العلمي للمؤرخ صالح العلي في الإشراف على طلبية الدراسات العليا، من خلال تقديم قوائم مطولة للموضوعات التي يرغبون الكتابة فيها، وغالباً ما كان عدم الرضا هو الجواب، لانه لم يكن يقتنع الا ببذل أقصى الجهود العلمية، وكانت الأيام والأشهر تطول ويبقى الطلبة ينتظرون الاذن منه لتقديم أعمالهم العلمية للمناقشة، فلا يقبل العلي تقديم ما أنجزه الطلبة الا على مضض وبعد مراجعات عديدة، وذلك لانه ورث عن أستاذه كب قلقه ومراجعاته المتواصلة لأعماله قبل نشرها وكان هو ابلغ من وصف نفسه حين قال: "كنت أدرك انه لا يصح نشر بحث الا عند اقترابه من مستوى النضج، بما هو مستوى العالم العربي والغرب"^(٤٥)، يلاحظ من خلال جهود العلي في الإشراف على الرسائل والاطاريح الجامعية التي كانت موضوعاتها بعيدة كل البعد عن خطط بغداد، ولعل السبب في ذلك هو إن العلي كان يدرك إن اغلب طلبته لم يكونوا يجيدون اللغة الانكليزية، فلم يسمح لهم بالكتابة عن خطط بغداد لاسيما وان هناك الكثير من المراجع الثانوية قد تناولت بغداد وخططها، او انه أيقن إن كل الموضوعات أشبعت ولم يبقى لطلبته شيء جديد يبحثون فيه بما يخص خطط بغداد .

رئاسة صالح احمد العلي المجمع العلمي العراقي ودوره في اغناء الخطط البغدادية (١٩٧٨-١٩٩٥):

يعد المجمع العلمي العراقي احد صروح العلم في العالم العربي، وله مكانة كبيرة بين الجامعات العلمية، أسس سنة ١٩٤٧، وظهر نتاجه التحريري مع بداية ١٩٥٠، وقد ضم المجمع منذ تأسيسه خيرة علماء ومفكري العراق وغيرهم من الأعضاء المرسلون ومنهم أستاذ العلي هملتون كب، و عين العلي رئيساً للمجمع العلمي العراقي سنة ١٩٧٨، وكان عضواً فيه منذ سنة ١٩٦٣، فتيسر له المجال للعمل على توفير المستلزمات لتحقيق البحث والنشر بما يخص خطط بغداد، فغني بتطوير المكتبة واكمال ما ينقصها في ميادين العلوم العربية، كما قام بجلب مجموعة من المخطوطات إلى مكتبة المجمع العلمي العراقي، والتي أصبحت تضم مجموعة قيمة شبه كاملة من المخطوطات التاريخية، فضلاً عن الكتب والبحوث، فأتاح له المجمع العلمي التعرف على ابرز المؤرخين، وسهل له الاتصال بأبرز المعنيين في دراسة ثقافة الاسلام وحضارته من علماء ومفكري العراق والعالم العربي، وقوي إدراكه بأهمية الترجمة والنشر فبدأ يعتني بنشر ما كان أعده من كتب مترجمة بما يخص خطط بغداد^(٤٦)، ففي سنة ١٩٨٤ اقام العلي بترجمة ثلاث كتب أولها كتاب (أطراف بغداد تاريخ الاستيطان في سهول ديالى) لمؤلفه روبرت ماك ادمز^(٤٧)، وقد شاركه في الترجمة كل من الدكتور علي المياح والدكتور عامر سليمان، وهو كتاب جمع بين التاريخ والآثار والمسح الهندسي لمنطقة ديالى ضمن إطار زمني يمتد حوالي أربعين قرناً، وهي دراسة شاملة في مجالاتها وزمانها دون مناقشة آراء المؤلف او التعليق عليها، ولم يصف المترجمون إلى النص الأصلي سوى عبارات توضيحية، اذ ذكر العلي: "وحرص المترجمون على الحفاظ على النص وإخراجه بلغة عربية سليمة، دون مناقشة آراء المؤلف او التعليق عليها، ولم نضف إلى النص الا عدداً من العبارات التوضيحية أشرنا إليها بعلامة (X) ... ووضعتنا تعليقات المؤلف في مكانها من الصفحات التي حدثت الاشارة إليها فيها، وكانت في الأصل موضوعة في آخر الكتاب، ونرجو بعملنا اغناء المكتبة العربية ببحث قيم نسق بين النصوص المكتوبة والآثار المكتشفة، من اجل توضيح المعالم العمرانية لمنطقة مهمة متصلة ببغداد، والله من وراء القصد"^(٤٨).

ان ترجمة مثل هذه الكتب يدل على حرص العلي وزملائه الذين ترجموا معه على نشر التراث البغدادي والجغرافي الذي أهتم به الأوروبيون إلى جانب اهتمام المؤرخين المعاصرين، وانه لا يجد حرجاً في ان يتناول ويستعرض آراء المستشرقين بغض النظر عن منهج البعض منهم في تفسير التاريخ الاسلامي.

كما قام العلي سنة ١٩٨٤ بترجمة كتاب ثان هو (خطط بغداد في العهود العباسية الاولى) لمؤلفه يعقوب ليسنر^(٤٩)، الذي أشتمل على نشر ودراسة للفصل الذي كتبه الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م) عن خطط بغداد، كما ضم الكتاب نص الخطيب والتعليقات عليه، وفصولاً وملاحق بحث فيها المؤلف عن حياة الخطيب البغدادي وأهمية ما كتب عن خطط بغداد، وعالج عدداً من القضايا والجوانب التي كانت مثاراً للانتقاد، وذكر العلي ان الهدف من هذه الترجمة قائلاً: "وأرجو بتقديمي هذا الكتاب بالعربية ان أكون قد أديت بعض الخدمة للقارئ العربي في دراسة تاريخ هذه المدينة العظيمة، وأرجو ان أتبع ذلك بدراسة أوفى، وان يتوفق المجمع العلمي العراقي في أكمال ما اعتزم القيام به من نشر المترجمات والمؤلفات لهذه المدينة العظيمة التي تنتظر اهتماماً أوسع، لتوضيح تاريخها واطهار عظمتها التي شيدتها سواعد أهلها وعقولهم"^(٥٠)، وتتضح جهود العلي في ترجمة هذا الكتاب من خلال ما قام به من تعديلات تفيد البحث قائلاً: "وقد أحدثت في هذا الترتيب بعض التعديلات التي رأيت ان إدخالها يزيد من تيسير متابعة البحث"^(٥١)، فنلاحظ ان العلي وزع التعليقات على أسفل الصفحات تبعاً لمواقع النصوص التي وضعت لها هذه التعليقات، ان ذلك أسهل للقارئ على متابعة مصادر النصوص والتعليقات عليها"^(٥٢)، كما قام العلي بترجمة كتاب ثالث هو (خطط بغداد في القرن الخامس الهجري) لمؤلفه الدكتور جورج مقدسي^(٥٣)، وضم هذا الكتاب ثلاثة أقسام متميزة، أولها نشر وصف ابن عقيل البغدادي (٤٣١-٥١٣هـ/١٠٣٩-١١١٩م) لبغداد مع التعليق عليه، فابن عقيل قدم وصفاً مكماً لوصف الخطيب البغدادي لمدينة بغداد، وعلى الرغم من ان الدراسة مختصرة وعامة الا انه قدم صورة جيدة عن هذه المدينة، وبخاصة الجانب الشرقي منها، وفيه تفاصيل طريفة جداً عن مختلف المحلات ونشاطات السكان، والحدائق والأبنية المهمة، ونهر دجلة وتوابعه^(٥٤)، وضم القسم الثاني سرداً تاريخياً منسقا لبعض العوامل الأساسية المؤثرة في عمران بغداد، وتناول القسم الثالث اعطاء صورة جمالية للتطور العمراني لبغداد، وكتبت هذه الدراسة بأسلوب مركز ومنظم وتميزت بغزارة المعلومات وتدقيق قراءة النصوص، وهي احدث وأوسع ما نشر عن خطط بغداد في القرن الخامس الهجري^(٥٥).

اما الهدف من ترجمة هذا الكتاب فيتضح من خلال قول العلي بقوله: "قمت بنقل البحث كما كتبه مؤلفه، دون إضافة مقدار غير قليل من المعلومات التفصيلية المتوفرة لدي عن بعض جزئيات المواضع الخططية التي وردت في البحث، او التي اغفل ذكرها فيه، وأرجو ان تكون في نشره فائدة للمعنيين بتاريخ بغداد وعمرانها، وان يكون أساساً موجهاً للباحثين في هذا الميدان"^(٥٦).

فضلاً عن جهود العلي في ترجمة هذه الكتب الخاصة بخطط بغداد، فانه ساعد في طبع ونشر كتاب (خطط بغداد وانهار العراق القديمة دراسة خططية) لمؤلفه مكسمليان شتريك^(٥٧)، وذلك سنة

١٩٨٩، وقد قام بترجمة هذا الكتاب الدكتور خالد اسماعيل علي^(٥٨)، وهو من الكتب الاولى المعتمدة في دراسة خطط العراق وعمرانه وكتب باللغة الألمانية ونشر سنة ١٩٠٠ بليدن في قسمين، الأول: تناول المعالم العمرانية والمدن في العراق، وبحث القسم الثاني: خطط بغداد ومعالمها العمرانية، وهو من الكتب المهمة حيث اعتمد المؤلف على جغرافيين ومؤرخين عرب في معلوماته، فجمع أخبارهم وبوبها تبعاً لأجزاء الكتاب وفصوله ودقق فيها واستخلص منها ما رآه من نتائج^(٥٩)، وقام العلي بمساعدة المترجم لهذا الكتاب بدليل قول الأخير: "وقد قام الدكتور صالح احمد العلي بإعازتي النسخة الألمانية التي اعتمدها، كما قام بمراجعة الكتاب مراجعة دقيقة في أسلوبه، ومادته التاريخية، ونهني إلى بعض العبارات الغامضة التي تستوجب التدقيق، وبذلك أزال عدد من الهفوات"^(٦٠) فكانت جهود المؤرخ العلي متمثلة بترجمة ونشر كل ما يتعلق بخطط بغداد أثناء رئاسته للمجمع العلمي العراقي من اجل أغناء المكتبة العربية وخدمة للمهتمين بمدينة بغداد الخالدة.

الخاتمة:

اما أهم نتائج البحث فيمكن القول ان هناك عدة نتائج هي:

أولاً: ان المؤرخ صالح احمد العلي لم يكن يشعر بانتمائه للموصل بقدر ما كان انتمائه لبغداد بوصفها عاصمة للعراق وفق معطيات وطنية، وانه كان يدرك ان شهرته ومجده العلمي يتنامى بشكل اكبر عندما يتعرض في مؤلفاته وبحوثه للتاريخ البغدادي وليس لتاريخ الموصل، لاسيما وانه تلقى تعليمه العالي في أكسفورد واطلع على اهتمام المستشرقين ببغداد وتاريخ الدولة العباسية.

ثانياً: ان العلي قد سخر معرفته ودراسته على يد المستشرقين ومنهم هاملتون كب في الأبحاث التاريخية الهادفة والتي تظهر النتائج المبتكرة وقد ظهر ذلك عندما وظف معرفته بتنظيمات البصرة في دراسة خطط بغداد وغيرها.

ثالثاً: ان أهم نتائج البحث هي ان العلي له جهوده في الترجمة قد تفوق على جهوده في التأليف بما يخص النتاج الخططي عن بغداد، وان هذه الجهود لم تكن تفعل لولا إدراكه لأهمية الأعمال التي قام بها أولئك المؤلفون الأوربيون ومكانتها في الوسط العالمي.

رابعاً: ان المجمع العلمي العراقي امتاز بنتاجه المحلي الذي هو محل اهتمام عربي، وقد أكمل المؤرخ العلي ما شرع به الرواد الأوائل في المجمع في نشر وترجمة مجموعة من الكتب العلمية مما جعل المجمع العلمي العراقي ذا خصوصية عراقية مميزة من خلال ما قدمه من دراسات قيمة، إذ أصبحت أعمال المجمع محل اهتمام المستشرقين.

خامساً: لقد توصل البحث على ان المؤرخ العلي لم يكن له طلاب في الدراسات العليا تناولوا خطط بغداد وتراثها، وهذا يدل على انه كان يفصل بين عمل المجمع العلمي العراقي، وعمله في الجامعة والدراسات العليا.

الهوامش:

- (١) المطبعي، حميد، المؤرخ صالح احمد العلي،(بغداد: ٢٠٠٥)، ص٥.
- (٢) الملا جاسم، ناصر عبد الرزاق، المؤرخ صالح احمد العلي رحلة التأسيس لمنهج أكاديمي لدراسة التاريخ العربي، (بيروت: ٢٠١٠)، مركز دراسات الوحدة العربية، ص١٨.
- (٣) النحاس، زهير علي احمد، تاريخ النشاط التجاري في الموصل بين الحربين العالميتين، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (جامعة الموصل: ١٩٩٥)، كلية الآداب، ص١٤- ٢٥.
- (٤) الملا جاسم، المؤرخ صالح، ص ٢٠- ٢١.
- (٥) العلي، صالح احمد، سيرة وذكريات، مخطوط، ص ١-٢، نقلاً عن الملا جاسم، المؤرخ صالح، ص ١٩.
- (٦) النحاس، تاريخ النشاط التجاري، ص ٦٠.
- (٧) العلي، سيرة وذكريات، ص ٤، نقلاً عن الملا جاسم، المؤرخ صالح، ص ٢٠.
- (٨) الملا جاسم، ناصر عبد الرزاق، (المنظور الحضاري في فكر الأستاذ الدكتور صالح احمد العلي)، بحث منشور في المجلة القطرية للتاريخ والآثار، ١٤، (٢٠٠١)، ص١٦٥.
- (٩) النحاس، تاريخ النشاط التجاري، ص ١٨٩.
- (١٠) العلي، سيرة وذكريات، ص ٧ نقلاً عن الملا جاسم، المؤرخ صالح، ص ٢١.
- (١١) الملا جاسم، المؤرخ صالح، ص ٢١- ٢٢.
- (١٢) العلي، سيرة وذكريات، ص ٧ نقلاً عن الملا جاسم، المؤرخ صالح، ص ٢٢.
- (١٣) الملا جاسم، المؤرخ صالح، ص ٢٢- ٢٣.
- (١٤) مكتبة الموصل العامة المركزية: تأسست هذه المكتبة في الموصل سنة ١٩٢٠، واتخذت من مقر بلدية الموصل التي كانت قائمة مقابل مركز السراي في منطقة باب الطوب مقراً لها، وكانت تحت إشراف وزارة المعارف، ثم أخذت هذه المكتبة بالتطور والتوسع وأصبحت تعرف بمكتبة الأمير غازي وذلك سنة ١٩٣٠، للمزيد ينظر: محمد، عامر بلو اسماعيل، المراكز التعليمية والثقافية في الموصل ١٩٢١- ١٩٥٨، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية،(جامعة الموصل: ٢٠٠١)، ص٣٩.
- (١٥) المطبعي، المؤرخ صالح، ص ٣٩.
- (١٦) الملا جاسم، المؤرخ صالح، ص ٢٣- ٢٦، ٢٤.
- (١٧) الطالب، عمر محمد، الكتاب المؤلفون في الموصل، (الموصل: ٢٠٠٥)، ١/ ٥٦؛ المطبعي، المؤرخ صالح، ص ٥.

- (١٩) الملا جاسم، المؤرخ صالح، ٣٠-٣١.
- (٢٠) المصدر نفسه، ص ١٨.
- (٢١) المطبعي، المؤرخ صالح، ص ١٦.
- (٢٢) هاملتون كب: ولد المستشرق هاملتون كب في الاسكندرية ١٨٩٥ من والد اسكتلندي هو الكسندر كراوفورد كب الذي كان مديراً زراعياً لشركة أبي قير لاستصلاح الدلتا، لكن والده توفي وكب لم يبلغ الثالثة من عمره بعد، فانتقلت به والدته من أبي قير إلى الاسكندرية لتمتحن العمل هناك كمدرسة في مدرسة كنيسة الفتيات الاسكتلديات، ثم أرسل إلى مسقط رأسه في اسكتلندا وفيها تلقى تعليمه حتى ١٩٠٤ ثم رحل إلى المدرسة الملكية العليا في أدنبرة ومكث فيها إلى عام ١٩١٢ ولعبت هذه المدرسة دوراً مؤثراً في شخصيته واتجاهاته العلمية، وقد تخصص في اللغات السامية وكان له اهتمام بالتاريخ الاسلامي للمزيد، ينظر: بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ط ٢، (بيروت: ١٩٨٩)، دار العلم للملايين؛ الملا جاسم، ناصر عبد الرزاق عبد الرحمن، المستشرق هاملتون أ.ر. كب دراسة نقدية لتطور مواقفه من التاريخ والحضارة العربية الاسلامية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (جامعة الموصل: ١٩٩٨)، كلية الآداب، ص ٩-١٠.
- (٢٣) المرجع نفسه، ص ٩-١٠؛ الملا جاسم، المؤرخ صالح، ص ٤١.
- (٢٤) الملا جاسم، دكتوراه، ص ٥٨.
- (٢٥) الملا جاسم، المؤرخ صالح، ص ٤٥ وما بعدها.
- (٢٦) الطالب، الكتاب والمؤلفون، ١/٥٦؛ الملا جاسم، المؤرخ صالح، ص ٣٥، ٣٢.
- (٢٧) المطبعي، المؤرخ صالح، ص ٦؛ الطالب، الكتاب والمؤلفون، ١/٥٦.
- (٢٨) ينظر: تاريخ اليعقوبي، ط ٢، (بيروت: ٢٠٠٢)، دار الكتب العلمية، ج ٢/٢٦١.
- (٢٩) الطالب، الكتاب والمؤلفون، ١/٦٠-٦١.
- (٣٠) بحث منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي، (بغداد: ١٩٦٧)، م ٣/٤-٣٣.
- (٣١) المطبعي، المؤرخ صالح، ص ١٠٢-١٠٣؛ المرزوك، صباح نوري، معجم المؤلفين والكتاب العراقيين، ط ١، (بغداد: ٢٠٠٢)، بيت الحكمة، ٤/٢٦.
- (٣٢) الملا جاسم، المؤرخ، ص ١٠٤.
- (٣٣) الملا جاسم، المستشرق هاملتون، ص ١٧٢.
- (٣٤) بحث منشور في مجلة سومر، (بغداد: ١٩٥٧).
- (٣٥) بحث منشور في مجلة سومر، (بغداد: ١٩٧٦)، م ٣٢/٣٢-١٤٥-١٨٩.
- (٣٦) بحث منشور في مجلة سومر، (بغداد: ١٩٧٧)، م ٣٣/٣٢-١٢٦-١٤٦.
- (٣٧) بحث منشور في جريدة الجمهورية، (بغداد: ١٩٧٧)، ع ١٩٤/٤٤-٧٩.

- (٣٨) بحث منشور، ف. مجلة المهد، د، (بغداد: ١٩٧٩)، ص ٨٤-٤، ص ١٠٧-١٤٨.
- صالح أحمد العلي وجهوده العلمية في دراسة خطط بغداد
- (٤٠) بحث منشور في مجلة سومر، (بغداد: ١٩٨١)، م ٣٧/١٧٧-١٨٨.
- (٤١) بحث منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي، (بغداد: ١٩٩٠)، م ٤١-٤٢ / ٥-٩.
- (٤٢) المطبوعي، المؤرخ، ص ١٢٨.
- (٤٣) المرجع نفسه، ص ١٠٤.
- (٤٤) المرجع نفسه، ص ١٣٠-١٣٢.
- (٤٥) الملا جاسم، المؤرخ صالح، ص ٩٩-١٠١.
- (٤٦) ينظر مثلاً: ماك، آدمز روبرت، أطراف بغداد تاريخ الاستيطان في سهول ديالى، ترجمة: صالح احمد العلي وآخرون، (بغداد: ١٩٨٤)، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ص ٧.
- (٤٧) روبرت ماك آدمز: هو باحث اثاري ولد في الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٢٦، تلقى تعليمه فيها، حصل على شهادة الدكتوراه من شيكاغو سنة ١٩٥٧، اذ عمل عضو في هيئة التدريس، وشغل منصب عميد في جامعة شيكاغو من ١٩٨٢-١٩٨٤، حصل على الميدالية الذهبية للاتجاز المتميز الاثاري سنة ٢٠٠٢ من معهد الآثار الأمريكية، يعمل حالياً أستاذ مساعد في جامعة كاليفورنيا للمزيد، ينظر: موسوعة ويكيبيديا الحرة، ص ٣٣.
- (٤٨) ينظر: ماك، أطراف بغداد، ص ٧.
- (٤٩) يعقوب ليسنر: ولد في جرونس سنة ١٨٦٨، وتخصص في الآثار الأثورية، تم تعيينه في جامعة برلين أستاذاً لها سنة ١٩٢١، وأرسلته جمعية الأبحاث الشرقية في البعثة الأثرية الألمانية إلى بابل و توفي سنة ١٩٤٧، للمزيد ينظر: ينظر: العقيلي، نجيب، المستشرقون، (القاهرة: ١٩٦٥)، دار المعارف، ٢/ ٧٦٩.
- (٥٠) ليسنر، يعقوب، خطط بغداد في العهود العباسية الاولى، ترجمة: صالح احمد العلي، (بغداد: ١٩٨٤)، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ص ٩.
- (٥١) المرجع نفسه، ص ٨.
- (٥٢) المرجع نفسه، ص ٩.
- (٥٣) جورج مقدسي: هو مؤرخ وباحث عربي من أصول لبنانية، نال الدكتوراه من إحدى الجامعات الأوروبية، وكان في مقدمة الذين نالوا كرسي اللغات الشرقية في جامعة هارفارد الأمريكية، ينظر: العقيلي، نجيب، المستشرقون، (القاهرة: ١٩٦٥)، دار المعارف، ٣/ ٩٨١.
- (٥٤) ينظر: جورج، مقدسي، خطط بغداد في القرن الخامس الهجري، ترجمة: صالح احمد العلي، (بغداد: ١٩٨٤)، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ص ٤-١٦، ٥.
- (٥٥) المرجع نفسه، ص ٤-٥.

(٥٦) المرجع نفسه، ص ٥.

(٥٧) المرجع نفسه، ص ٥.

م. د. مها سعيد حميد

(٥٨) خالد اسماعيل علي : هو باحث عراقي من مواليد مدينة بغداد ١٩٣٥، له العديد من المؤلفات والبحوث منها كتاب (اللغات العاربة المقارن مسائل وآراء) وكتاب (الاستعمار الاستيطاني الاسرائيلي في الأراضي العربية)، للمزيد ينظر: المرزوك،، معجم المؤلفين، ٣٦٧/٢.

(٥٩) شتريك، مكسمليان، خطط بغداد وانهار العراق القديمة دراسة خطية، ترجمة: خالد اسماعيل علي، (بغداد: ١٩٨٦)، مطبعة المجمع العلمي العراقي ص ٣؛ مرزوك، معجم المؤلفين، ٣٦٧/٢.

(٦٠) ينظر: اسماعيل، خطط بغداد، ص ٣.